طالبان والغرب .. عمليات الفشل الدائم

د. أحمد موفق زيدان

متخصص وكاتب في شئون جنوب آسيا

ملخص الدراسة

ترتكز الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان على نقطتين أساسيتين الأولى: تكثيف العمليات العسكرية داخل أفغانستان، وكسب ولاء بعض قيادات طالبان التي تُوصف بـ «المعتدلة». والثانية: تكثيف التعاون والتنسيق العسكري والأمني الأمريكي مع دول الجوار المعنية بالشأن الأفغاني، مثل باكستان وإيران والهند لمساعدتها في الحرب على القاعدة وطالبان.

وتمثَّل الشق الأول من استراتيجية واشنطن الجديدة في نقل القائد الأمريكي الجنرال «ماك تشريستال» إلى أفغانستان؛ وذلك لأنه هو الذي قاد عملية القبض على الرئيس العراقي السابق صدام حسين وقتل نجليه؛ ليعيد استنساخ النموذج العراقي في التعامل مع المسلحين؛ حيث يأمل «ماك» من خلال عملياته في إقناع عامة الشعب الأفغاني بعدم التعاون مع طالبان؛ لإفقادهم الحاضنة الاجتماعية التي يتمتعون بها، لكنها خطوة كما يقولون بالإنجليزية: قليلة جدًّا، ومتأخرة كثيرًا.

فيما تجلى الشق الثاني من هذه الاستراتيجية في نجاح الأمريكيين في دفع الجيش الباكستاني إلى الدخول في حرب يمكن وصفها بـ «الشاملة» مع مسلحي طالبان على أكثر من جبهة، بالإضافة إلى ممارسة دور السندان أثناء أضخم عمليات عسكرية يقودها الأمريكيون منذ تولي «أوباما» السلطة في هلمند مطلع شهر يوليو من العام ٢٠٠٩م.

ويسعى الأمريكيون إلى تصدير المعركة إلى باكستان، وهو السعي الذي وافق هوى الرئيس الأفغاني حامد كارزاي، الذي يعتقد مع أركان إدارته أنه ما لم تُشغل باكستان بمشاكلها الداخلية فإنها «ستظل تصدِّر المشاكل إلى أفغانستان» بحسب رواية كثيرين ممن التقوا به.

أما الباكستانيون فقد قابلوا السعي الأمريكي والرغبة الأفغانية الرسمية بمزيد من التخبط في كيفية التعامل مع طالبان؛ حيث لا يزال الجدل محتدمًا في دهاليز السلطة السياسية الباكستانية بشأن هل الخلاف الحكومي العسكري مع طالبان استراتيجي أم تكتيكي؟ وأيًّا ما كانت الخلافات فإنه من الصعب تخيل أن تتخلى باكستان عن طالبان؛ باعتبارها تمثل الثقل الموازي للتمدد الهندي على جبهتها الشرقية. وإذا كان الأمريكيون يعوِّلون كثيرًا على مسألة الاتصال بالشخصيات «المعتدلة» الطالبانية لشق وحدة الحركة، فإنهم يجهلون تمامًا طبيعة التنظيمات الأفغانية العصية على الانشقاقات الحقيقية والمؤثرة. ومن ثَم فإن طالبان ستواصل ضغطها لإجبار الأمريكيين وحلفائهم على الرحيل من أفغانستان، ربما ضمن صفقة قد تؤدي إلى ضبط ممارسات مسلحي القاعدة وغيرهم عن التعرض لمصالح أمريكا والغرب.

طالبان والغرب ..
عمليات الفشل الدائم

د. أحمد موفق زيدان
متخصص وكاتب في شئون جنوب آسيا

مقدمة:

منذ انتهاء الحملة الانتخابية التي أوصلت باراك أوباما إلى سُدّة الرئاسة في واشنطن، وبدء تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان مطلع عام ٢٠٠٩م، والتي وضعها قائد القوات المركزية الأمريكية الجنرال ديفيد باتريوس، نجح الأمريكيون في نقل معركتهم مع حركة طالبان إلى داخل الأراضي الباكستانية.

وقد ارتكزت الاستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان على نقطتين أساسيتين: الأولى تكثيف العمليات العسكرية في أفغانستان، وكسب ولاء بعض قيادات طالبان «المعتدلة». والثانية: تكثيف التعاون والتنسيق العسكري والأمني الأمريكي مع دول الجوار المعنية بالشأن الأفغاني، مثل باكستان وإيران والهند؛ لمساعدتها في الحرب على القاعدة وطالبان.

وتمثل الشق الأول من استراتيجية واشنطن الجديدة في نقل القائد الأمريكي الجنرال ماك تشريستال إلى أفغانستان، حيث إنه هو الذي قاد عملية القبض على الرئيس العراقي السابق صدام حسين وقتل نجليه؛ ليعيد استنساخ النموذج العراقي في التعامل مع المسلحين، ويأمل ماك من خلال عملياته في إقناع عامة الأفغان بعدم التعاون مع طالبان؛ لإفقاد طالبان الحاضنة الاجتماعية التي تتمتع بها، لكنها خطوة كما يقولون بالإنجليزية: قليلة جدًّا ومتأخرة كثيرًا.

فيما تجلى الشق الثاني من هذه الاستراتيجية في نجاح الأمريكيين في دفع الجيش الباكستاني إلى الدخول في حرب يمكن وصفها بـ«الشاملة» مع مسلحي طالبان على أكثر من جبهة، بالإضافة إلى ممارسة دور السندان أثناء أضخم عملية عسكرية يقودها الأمريكيون منذ تولي أوباما السلطة في هلمند مطلع شهر يوليو من عام ٢٠٠٩م.

وعلى الرغم من الوعود والتمنيات الطيبة التي رافقت انتخاب أوباما رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية في أن يكون عهده أقل دموية من عهد سلفه بوش، إلا أن أوباما الذي تراجع على الجبهة العراقية؛ لإدراكه أن الرأي العام الأمريكي لم يعد معنيًّا كثيرًا بالأمر بعد أن افتضحت كل الذرائع الواهية التي تسببت في الحرب، عاد وركز على الحرب في أفغانستان بأكثر شراسة وهمجية دموية.

وفي هذه الورقة نبحث مجريات ومستقبل حركة طالبان في ظل المستجدات الجديدة التي تشهدها أفغانستان، وفي ظل التحولات الإقليمية والدولية المحيطة بها، من خلال تساؤل رئيس تسعى الدراسة للإجابة عنه، ووضع

السيناريوهات المتوقعة بشـــأنه، حول مستقبل حركة طالبان في ظـل الاســتراتيجية الأمريكية الجديدة والتغيرات الداخلية والإقليمية المحيطة بالبلاد.

الواقـع الطالبانـي العسـكري .. الثقـل جنوبًـا والتمدد شمالاً:

ظل الجنوب الأفغاني على مـدى التاريخ معقل كل مقاومة ضد أي احتلال رُزئت به أفغانســتان، حصل هذا في ثلاثة حروب: ضد البريطانيين خلال القرنين التاسع عشـر والعشرين، وضد السـوفييت في القرن العشرين، وفي القرن الحادي والعشـرين مـع الأمريكيـين والبريطانيين وحلفائهم، ربما لذلك أسـبابه؛ فالشخصية البشـتونية الصلبة والعنيـدة التي ترفض الاحتلال، وتعشق الحرية، والتشاطر العرقي مع بشتون باكستان؛ حيث المساحات الشاسعة والحدود المفتوحة غير المنضبطة حكوميًا، والتي توصف عالميًا بأنها الحدود الوحيدة في العالم غير الخاضعة لسلطة الدولة، فوزيرســتان التي يُشار إليها أمريكيًا بأنه إذا أردت أن تعـرف ما يجري في العالم فعليك أن تبحث عنه في وزيرستان، وأطلق عليها البعض بأنها الجوزة القاسـية والعصية على الكسر، هذه المنطقة الواقعة فـي مناطق القبائل ربما تحتضن كل المطلوبين عالميًا، وتوفر القاعدة الأساسـية للمقاومة ضد الغربيين في أفغانستان.

وزيرســتان هــذه كانت قد لعبت نفـس الدور في أواخر القرن التاسـع عشـر بدعم من السلطان عبد الحميد الثاني وحاكمه في مكة لإضعاف بريطانيا في أفغانستان، وهي خصمه اللدود آنذاك.

إن مناطق البشــتون هذه توفر بشكل عام ملاذات آمنة لحركات المقاومة البعيدة عن السيطرة والتحكم الحكوميـة، يضاف إليهـا مناطق قبلية باكســتانية شاسعة خارج سيطرة الحكومة لحسابات جيوسياسية باكستانية، فباكســتان لا تزال تعتقد أن هذه المناطق القبلية تســتطيع من خلالها تصفية حســاباتها مع أيّ قوى أجنبية في أفغانســتان، أو حتى مع عدوتها التقليدية الهنـد، دون أن تتحمل تبعات الصراع؛ كون المنطقة شـبه معترف بها عالميًا أنها خارج السيطرة الحكومية، وبالتالي لن تُحمل مســئولية وتداعيات أيّ أعمال تخرج من تلك المناطق القبلية.

لا أود الدخول في تفاصيل الأبعاد السوســيولوجية لثقـل المقاومــة فـي الجنوب الأفغانــي؛ فخــلال الغــزو السوفييتي لأفغانســتان تلقى الجنوب أكثر من ثمانين بالمائة مــن الضربــات الصاروخيــة البعيدة والمتوسـطة المدى التي كانت تُعرف بصواريخ سـكود، وشهد الجنوب أشرس المعارك، وهو نفس الجنوب الذي يشــهد معارك مشــابهة مع الأمريكيــين والبريطانيــين، في حين يظل الشــمال الأفغاني شــبه صائم عن المقاومة؛ لتحالف قادتِه من العرقيات الطاجيكية والأوزبكية والشيعية مع الغربيين، وإن كانــت حركة طالبان -البشــتونية بالأســاس- وحكمتيار الطاجيكي الذي يتمتع بثقة ونفوذ كبيرين؛ لثقله في الشمال الأفغاني، كونه من أهل الشمال، قد بدأ كلاهما في كســر هذه القاعدة من خلال التمدد بالمقاومة شمالاً.

> **حين نتحـدث عن الجنـوب أيضًـا نتحدث عن البشـتون، وحين نتحدث عن البشتون نتحدث عـن رابـط قبائلـي عشـائري محكـم يربـط الجميـع، ويتعذر علـى الكثيريـن -بمن فيهم الرئيـس الأفغاني حامـد كارزاي- تجاوزه في بعض الأحيان.**

وحين نتحدث عن الجنوب أيضًا نتحدث عن البشتون، وحين نتحدث عن البشــتون نتحدث عن رابط قبائلي عشــائري محكم يربط الجميع، ويتعذر على الكثيرين -بمن فيهم الرئيــس الأفغاني حامد كارزاي- تجاوزه في بعــض الأحيان، وأقول في بعــض الأحيان، وهو ما يوفر حواضــن اجتماعية مهمة للمقاومة، كما أننا حين نتحدث عن البشتون نتحدث بالتأكيد عن حركة طالبان الأفغانية التي تنحدر في معظمها من العِرْقية

البشتونية؛ حيث وفَّرت لها المدارس الدينية المنتشرة بكثرة على طول الحدود الأفغانية -الباكستانية -بفضل جهود الرئيس الأسبق ضياء الحق- روافد مستمرة لمدّ المقاومة بالعناصر المسلحة، وهو ما قد تفتقر إليه أيّ مقاومة أو جماعة مسلحة في الظروف الصعبة والقاسية التي تمر بها، كما يجري الآن في طالبان باكستان وأفغانستان.

لقد نجحت طالبان حين أسكتت مدافعها ودباباتها، وانسحبت من أمام القوات الأمريكية والغربية حين اجتاحت أفغانستان في أكتوبر/ تشرين أول ٢٠٠١م، وذاب مقاتلو طالبان بعد أن نزعوا عماماتهم وألقوا أسلحتهم، وعادوا إلى قراهم وبلداتهم الطينية والجبلية منتظرين أوامر قياداتهم، وبالفعل وفَّر مقاتلو طالبان باكستان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب المسلحين الطالبانيين في أفغانستان دعمًا لوجستيًّا وأرضًا قبلية مهمة لانسحاب طالبان أفغانستان أو القاعدة والاختباء لديهم؛ تمهيدًا لبدء حرب عصابات أنهكت المحتل الأجنبي، فكانت الأيام الذهبية لهم بين عامي ٢٠٠١- ٢٠٠٣م؛ حيث انشغلت القوات الدولية بأفغانستان، وبمطاردة أسامة بن لادن؛ حيث إن العقلية الأمريكية مهووسة بكل ما هو شخصي.

فكان حرصها على شخصنة الصراع بشخصية أسامة بن لادن وبالاً عليها في المستقبل القريب؛ إذ كان الجميع من عناصر طالبانية باكستانية وأفغانية والقاعدة يحضِّرون الأرضيات في مناطق القبائل الباكستانية، وهو ما اعترف به كثير من ضباط الاستخبارات الباكستانية، وآخرهم مدير المخابرات العامة العميد امتياز أحمد أيام حكم الرئيس السابق برفيز مشرف من أن طالبان باكستان والقاعدة استغلت انشغال الجميع بمطاردة ابن لادن والتمتع بنشوة وسكرة النصر الرخيص والسريع في أفغانستان عن التفكير جديًا بمطاردة الحركة في مناطق أخرى، وتحديدًا في مناطق القبائل. (١)

وخلال زياراتي المتكررة لأفغانستان لمست -كما يلمس أي زائر باعتقادي- تنامي المقاومة الطالبانية في الجنوب، فكثير من البلدات والقرى في هلمند وقندهار واقعة في أيدي مقاتلي طالبان، بل وتمددوا إلى مشارف العاصمة الأفغانية كابول، وثمة من يتحدث عن صواريخ نُصبت على جبال كوه صافي التي لا تبعد سوى أربعة كيلو مترات عن العاصمة، وهو الأمر الذي يذكِّرنا بنفس الاستراتيجية التي اتبعها المجاهدون الأفغان قبل أشهر من سقوط نجيب الله ١٩٩٢م.

ولعل الهجوم الأول من نوعه الذي تعرضت له القاعدة العسكرية الأمريكية الأشهر في بجرام شمالي كابول، والتي أسفرت عن مقتل جنديين وجرح ستة آخرين، بينما مصادر طالبان تتحدث عن أكثر من عشرين قتيلاً، يشير إلى مدى التقدم الحاصل في استراتيجية طالبان العسكرية، ويؤكد مصداقية نشر هذه الصواريخ، فالعمليات العسكرية التي تنفذها القوات الأجنبية -والتي كان أهمها عملية «الخنجر» في هلمند- لم تكن بأفضل من سابقاتها؛ حيث حذَّر رئيس الوزراء البريطاني غوردون براون من صيف ساخن وصعب جدًّا. (٢)

ويعتقد بعض الخبراء العسكريين أن استراتيجية التحالف الدولي في تركيز العمليات العسكرية على الجنوب الأفغاني، وإبراز أن الشمال آمن، قد ضربتها طالبان من خلال نقلها المعركة إلى الشمال؛ حيث سيطرت على مديرية في قندوز شمالي أفغانستان، بعد أن دفعت البطالة هناك الشباب إلى الانخراط والقتال في صفوف طالبان، بالإضافة إلى ظهور حكام ظل لطالبان في الولايات التي تخضع لسيطرة الحكومة، وهو ما يكسر البيروقراطية الأفغانية الحاكمة، بالإضافة إلى تشكيك الأهالي باستمرارية الحكومة، وبالتالي يتوزع ولاء الأهالي بين طالبان والحكومة، تحسبًا لعودتها إلى السلطة، فالأفغاني كأيّ إنسان آخر يحسب حسابًا للطرف

(١) الصحف الباكستانية منتصف شهر مايو ٢٠٠٩م.

(٢) الديلي تلغراف الصادرة بتاريخ ١٢- ٦- ٢٠٠٩م.

الآخر في الصراع خشية وصوله إلى السلطة.

ويعتقد حاكم ولاية بلخ محمد عطا أن طريقة تعامل القوات الدولية مع الأهالي من اعتقال وإهانة دون سبب أو عذر، يعد وقودًا جديدًا للقوات الطالبانية في معركتها مع القوى الأجنبية. [1]

ويبدو أن طالبان تريد من خلال نقل المعركة إلى الشمال تشتيت قوات التحالف الدولي، وإرغامها على نشر قوات مقاتلة في الشمال، وهي المعروفة بافتقارها إلى جنودٍ لمواجهة طالبان في هلمند، فضلاً عن غيرها من الولايات.

وكانت عملية الخنجر التي وصفتها صحيفة الأوبزرفر البريطانية بأنها عملية لا هدف لها، ولا استراتيجية تهدد - في نظر الخبراء- بتحويل المعركة إلى معركة إقليمية؛ حيث كشفت الإيكونوميست البريطانية [2] عن لجوء مئات من المقاتلين الأوزبك إلى طاجيكستان وأوزبكستان هربًا من عمليات الجيش الباكستاني في وادي سوات وغيره من مناطق الشمال الغربي الباكستاني، وتصاعدت المخاوف بعد تعرض قوات أوزبكية في أنديجان إلى هجومين انتحاريين؛ حيث من المتوقع أن تسلك قوات الدعم الأمريكي اللوجستية التي سمحت لها روسيا بالمرور، وهو ما سيؤثر على خطوط الإمدادات الغربية إلى أفغانستان، خصوصًا وأن التقارب الأمريكي - الروسي فيما يعني الشأن الأفغاني له كلفة سياسية عالية جدًا، قدمتها أمريكا لروسيا بنظر الخبراء، وهو ما يفوق التكلفة الباكستانية التي تقدمها واشنطن لإسلام آباد؛ إذ إن على واشنطن تقديم تنازلات لروسيا فيما يخص الدرع الصاروخي، وتوسيع حلف الناتو إلى وسط آسيا، وكذلك الوضع في جورجيا والشيشان.

(١) مقابلة أجراها معهد الحرب والسلام مع عطاء محمد، ونشرت أجزاء من الدراسة صحيفة الغولف تايمز الصادرة بتاريخ ٢١-٧-٢٠٠٩م.
(٢) الإيكونوميست البريطانية الصادرة بتاريخ ١١- ٦-٢٠٠٩م.

الدعم المجتمعي لطالبان ودور المقاومة الشعبية:

غالبا ما يحذِّر المسئولون الباكستانيون من مغبة تحول المقاومة في أفغانستان إلى مقاومة شعبية، ويحاول هؤلاء المسئولون بهذا إقناع نظرائهم الأمريكيين بفشل الخيار العسكري، لاسيما وأنهم لا يزالون يشعرون بالغبن والطعن بالظهر حين تم تجاهلهم بتنصيب التحالف الشمالي في أفغانستان أعداء وخصوم باكستان، وبالتالي تدرك باكستان تمامًا أنها لن تكون في مأمن ما لم تكن الحكومة الأفغانية موالية لها، وحين نتحدث عن حكومة موالية لها نعني بذلك أن يكون البشتون الموالون لها ممثَّلين في الحكومة، محفوظة حقوقهم فيها، وهو ما تم تجاهله بعد الحرب الغربية على أفغانستان، فأثَّر سلبًا على بشتون باكستان الذين يتشاطرون عرقيًا وقرابة مع الأفغان.

لذا يشعر كل من يتابع الأحداث ويزور المنطقة أن طالبان أفغانستان تسير على أعراف وتقاليد المجتمع الأفغاني، فحين تم اعتقال بعض موظفي الحكومة في الجنوب الغربي الأفغاني وتقرر قتلهم، تدخل رجال القبائل والمتنفذون في المنطقة، ورضخت طالبان لهم وسلّمتهم المختطفين، وهو ما ضاعف من شعبيتها وسط القبائل، وطالبان أفغانستان لم تقم بأي عمل يؤثر على النسيج الاجتماعي الأفغاني من حيث الإضرار به بشكل صارخ، ولم تشر من قريب أو بعيد إلى أنها تود إحداث انقلاب تغييري في المجتمع القبلي المحافظ، وهو ما أجبر الأهالي إما على الصمت عنها، أو تأييدها؛ قناعةً أو تحسبًا لعودتها إلى السلطة، وهم يرون تنامي وتصاعد عملياتها على حساب تراجع قوات الاحتلال والحكومة الأفغانية.

كما أن القصف الجوي الأمريكي الذي تسبَّب في مقتل آلاف المدنيين الأفغان دفع الشارع الأفغاني -وتحديدًا الجنوبي منه المستهدَف من القصف- إلى الشعور بالأمن والاستقرار في ظل طالبان أكثر منه في ظل القوات الأمريكية، وتسبب ذلك -بحسب النيويورك تايمز- في دفع بعضهم إلى القتال في

صفـــوف طالبان خلال عمليـــة «الخنجر» في هلمند مطلع يوليو٢٠٠٩م؛ انتقامًا لضحاياهم المدنيين الذين ســقطوا من جراء الغارات الجوية الأمريكية.. وكانت القيادة الأمريكية قد دعت إلى التقليل من اســتخدام الضربات الجوية لتفادي سقوط مدنيين؛ كونه يشكِّل وقودًا للمقاومة الطالبانية، وبالتالي فتحييد ســلاح الطيران هو مـــن أولويات حركة طالبان التي تعانـــي الكثير من هذا الســلاح الخطير في ظل افتقارها إلى ما يضاده.

لكن عملية الخنجر في هلمند، بالإضافـــة إلى عمليـــة مخالب الفهـــد البريطانيـــة في جنوب كابـــول، أثبتت مجـــددًا أن كل عملية تضاف إلى ما سبقها من عشـرات العمليات الغربية في أفغانستان هي عبارة عن سلســلة من الفشـــل الدائم في أفغانستان؛ حيث كشفت الاعترافات الرســمية البريطانية والأمريكية بعـــد عمليات هلمند عمق الأزمـــة التي تواجهها هذه القوات في أفغانستان، بالإضافة إلى أن حصاد الواقع الحقيقي المر في ســهول هلمند سيكون له تداعيات خطيـــرة ووقع أخطر على مســتقبل الـــدول والقوى المتحالفة في الحرب على القاعدة وطالبان.

لقـــد أبلغ وزيـــر الدفاع الأمريكـــي روبرت جيتس صحيفة لوس أنجلـــوس تايمز: «أن القوات الأمريكية في أفغانستان تعبت وسئم معها الشعب الأمريكي».

أمـــا روبرت فيســـك فينقل شـــهادات وتصريحات أخطر لقادة حـــرب بريطانيا في أفغانســـتان، تقرأ الفشل البريطاني بطريقة أشد مأساوية وخطورة على القوات الموجودة هناك.

كما كشـــف تقريـــر عن الواقـــع الأفغاني للخبير الأمريكي غوردســـمان كتبه بالتعاون مع مساعد وزير الدفـــاع الأمريكي المقرب من أوبامـــا –حيث أُجريت الدراسة للإدارة الجديدة- تنبأ بأن السياسة الأمريكية في أفغانستان أقرب إلى الفشل منها إلى النصر.[1]

كمـــا قال الضباط الأمريكيـــون الذين جمعوا بين خبرتي الحرب العراقية والأفغانية في شهادتهم التي نشـــرتها النيويورك تايمز: إننا نواجه عـــدوًا أفغانيًا أكثـــر ذكاءً من عدونا وخصمنا فـــي العراق.. فالعدو في الأنبار العراقية كان يضرب ويهرب، أما هنا فيضرب ويثبت وينـــاور، وهـــم مقســـمون إلى مجموعتين: مجموعة تطلق علينا النار لترغمنا على إبقاء رءوسنا منحنية، ومجموعة أخرى تناورنا من أجل قتلنا وقنصنا، إنه عدو كفؤ وأكفأ من عدو الأنبار».

طالبان أفغانستان لم تقم بأي عمل يؤثر على النسيج الاجتماعي الأفغاني من حيث الإضرار به بشكل صارخ، ولم تشـر من قريب أو بعيد إلى أنها تود إحداث انقلاب تغييري في المجتمع القبلـي المحافظ، وهو ما أجبر الأهالي إما على الصمت عنهـا، أو تأييدهـا؛ قناعـةً أو تحسـبًا لعودتها إلى السلطة.

ويقول ضابط آخر شهد حرب العراق: «إننا نلعب معهم الشطرنج، فنحن نحاصرهم وهم يحاصروننا».[2]

إن القـــوات الأمريكية أعلنت فـــي هلمند عن مقتل خمســـة وثلاثين جنديًا أمريكيًا فقط خلال الأســـابيع الثلاثـــة الأولـــى من معـــارك هلمند.. أما الدراســـة البريطانية الخطيرة التي نشرتها الإندبندنت[3] فتقول: إن تكاليف حرب هلمند على صعيد القتلى بلغت عشرين قتيلاً و١٧٩ جريحًا، وهي المعركة الأصعب للبريطانيين منذ حرب شبه الجزيرة الكورية قبل خمسة عقود، فقد فاقت تكلفة معارك هلمند الـ١٢ مليار جنيه إسترليني، وهي مبالغ كافية لبناء ٢٣ مستشفى، وتوظيف ٦٠ ألف مدرس، أو ٧٧ ألف ممرضة، وهذا يعني أن هذه المعارك كلفـــت كل فرد يعيش في بريطانيا كبيرًا كان أو صغيرًا مائة وتسعين جنيهًا.

وكان هدف عمليات هلمند هـــو تأمين الانتخابات الرئاســـية الأفغانية وفـــوز الرئيـــس الحالي حامد

(١) التقريـــر من إعداد لجنة خاصة بالكونجرس الأمريكي ويتكون من ٢٨ صفحة ، نشرت أجزاء منه في الصن نيوز بتاريخ ٢٠ حزيران٢٠٠٩م.
(٢) النيويورك تايمز الأمريكية الصادرة بتاريخ ٢٦-٧-٢٠٠٩م.
(٣) الإندبندنت البريطانية الصادرة بتاريخ ٢٥-٧-٢٠٠٩م.

كارزاي، ولكـن يبدو أن توفير الأمن والاسـتقرار من أجل عقد الانتخابات صعب المنال، وفي ظل الفشـل الذي شاب عقد الانتخابات لأسباب كثيرة فإنه يمكن القول بـأن الأمريكيين والبريطانيـين وحلفاءهم قد فشلوا في عملية هلمند، لتنضم إلى عشرات العمليات التي انطلقت وفشـلت، والتي كان أولها عملية الحرية الدائمة لنصل الآن على ما يبدو إلى عمليات الفشـل الدائم المتواصلة منذ ثماني سنوات.

العلاقة بين طالبان وجماعات المقاومة الأخرى:

لقد حرصت حركة طالبـان منذ البداية على عدم التعرض لجماعـات المقاومة الأخـرى، ونفس الأمر ينطبق على الأخيرة؛ إذ إن زعيم الحزب الإسـلامي قلب الدين حكمتيـار المطلوب أمريكيًا، والذي يقاتل الوجود الأمريكي، قد شـدَّد في مقابلة أخيرة له نُشرت في صحيفة «وحدت» (١) على أن علاقـات الحزب على مسـتوى التنسـيق الميداني الأرضي جيدة مع كل من القاعدة وطالبان.

ولقـد سـعت طالبان خلال الفتـرة الأخيرة إلى اسـتيعاب بعض فصائل المقاومة وتحديدًا السلفيين في ولايتي نورستان وكونار المتاخمتين لباكستان؛ حيث أعلنوا عن انضمامهم للحركة، وينسبون العمليات التي ينفذونها إلى طالبان، ويبدو أن قوة طالبان وامتداداتها في دول الجوار سـيجعل فرض أجندات الآخرين مثل حكمتيار وغيره متعذرًا إن لم يكن مسـتحيلاً، في ظل الامتدادات الجغرافية المهمة لطالبان أفغانسـتان في دول الجوار.

ويظهر التباين في المواقف السياسـية بين طالبان والحزب الإسـلامي بزعامة حكمتيار، تحديدًا فيما يخص شـكل إدارة أفغانستان، فطالبان تدعو الجميع إلـى مبايعة زعيمها الملا محمد عمر أميرًا للمؤمنين، فيما يدعو حكمتيار إلى إجراء انتخابات عقب التحرير لترك الشعب يقرر مصيره بنفسه، وبهذا يريد حكمتيار أن يجعل نفسه مساويًا للملا عمر، وهو المرفوض في العقلية الطالبانية التـي تؤمن بإمارة المؤمنين، وليس بالانتخابات التي لن تفرز الأصلح ما دام المال والجاه وغيرهما هما العنصران اللذان يلعبان الدور الأساسي في هذه الأوضاع.

المدارس الدينية.. خزان تجنيد المقاتلين:

تشكل المدارس الدينية المنتشرة كالفطر في باكستان، وتحديدًا على الحدود الأفغانية – الباكستانية خزان تجنيد حقيقي لمقاتلي طالبان، بالإضافة إلى أنها تلعب دور الملاذ الآمن لتحركات المقاتلـين؛ لكونها آمنة من حيث الأشـخاص الذيـن يديرونها، وآمنة من كونها لن تُستهدف من قبل أعداء طالبان، وحتى لو تم استهدافها فلن يصدق العامة أن الهدف هو قتل طالبان، وإنما سيظهر على أن الاستهداف للدين ولطلبته، وهذه المدارس الدينية تقدر بأكثر من خمسـة عشـر ألف مدرسـة دينية، وتستقبل أكثر من أربعة ملايين طالب علم. (٢)

تشكل المدارس الدينية المنتشرة كالفطر في باكستان، وتحديدًا على الحدود الأفغانية - الباكستانية خزان تجنيد حقيقي لمقاتلي طالبان، بالإضافة إلى أنها تلعب دور الملاذ الآمن لتحركات المقاتلين.

ووصفها مرة الرئيس السـابق برفيز مشرف بأنها أضخـم منظمة إغاثيـة أهلية تطوعيـة، فالحكومة سـتكون عاجزة تمامًا عـن توفير التعليم والمسـكن والمطعم لأربعة ملايين طالب علـم، ومثل هذا العدد الضخم الذي يتلقى منهجًا طالبانيًا سيكون نتاج هذه المـدارس بالتأكيد يصبّ في صالـح طالبان، وهو ما يفسر تمامًا قلق الغرب الدائم والمتواصل من المدارس الدينية الباكستانية.

(١) صحيفة «وحدت» الصادرة في بيشـاور وبلغة البشـتو بتاريخ ٦-٧-٢٠٠٩م.

(٢) دراسة أعدها الكاتب أرنولد دي بورتشغريف، ونشرت في الواشنطن تايمز بتاريخ ٢٠٠٣/١/٣م.

الغطاء المشيخي الديوبندي الحنفي:

شكَّلت المدرسة الديوبندية الحنفية على مدى عقود مظلة حقيقية للجهاد في أفغانستان، ثم لحركة طالبان الأفغانية التي تتشاطر معها عقيدة ومذهبًا واحدًا، وهي المدرسة التي شكَّلت -ولا تزال- الروح الحقيقية لباكستان، وبالتالي فقد لُوحظ أن الطالبان في باكستان وأفغانستان لا يتعرضون إطلاقًا لأيّ عالم حنفي.

إن المؤسسة العسكرية التي كانت الحليف الأساسي للمدرسة الديوبندية منذ قيام باكستان تفطنت على ما يبدو للأمر، وتحت الضغط الأمريكي والغربي انشرخت العلاقة مع المدرسة الحنفية أولاً بالتعاون الأمريكي في الحرب على أفغانستان عام ٢٠٠١م، وثانيًا بهجومها على المسجد الأحمر عام ٢٠٠٧م، ثم لجوء المؤسسة والحكومة إلى الطائفتين البريلوية الصوفية المتطرفة، والشيعة والإسماعيلية في تغطية مواقفها المناهضة لطالبان باكستان، وبالفعل فقد عقدت مؤتمرات ومسيرات ومظاهرات مندِّدة بطالبان، الأمر الذي ردت عليه الأخيرة باستهداف بعض رموز هذه التحركات، في الوقت الذي آثرت المؤسسة الحنفية الصمت إزاء طالبان، وهو ما أزعج الحكومة والجيش على السواء؛ حيث إنهما كانا ينتظران منها موقفًا مؤيدًا لها في عملياتها ضد طالبان، بل على العكس كان رموز الديوبندية الحنفية قد كفَّروا كل من يقاتل طالبان، ولذا يعتقد بعض المحللين أن مقتل مفتي باكستان نظام الدين تشامزي في كراتشي ٢٠٠٦م كان بسبب فتوى أصدرها عن كفر الرئيس برفيز مشرف، وأن قتلى الجيش الباكستاني في الحرب مع طالبان لا يُصلى عليهم.

الواقع السياسي لحركة طالبان:

الواقع السياسي لطالبان أفغانستان يفتقر إلى الكثير من المعلومات لاسيما وسط شحّ التصريحات والمقابلات الطالبانية، وعزوف الحركة عن هذا المجال، وانهماكها في العمل العسكري اليومي، لكن مع هذا فقد أعاد زعيم حركة طالبان الملا محمد عمر تنظيم الحركة، حين شكَّل لجنة سياسية قادها في البداية معتصم أغا خان، لكنه أُقيل بسبب ما قيل عن شبهات مالية، وعُيِّن محله لطيف الله منصور كرئيس للجنة السياسية.

ومن خلال تصريحات شحيحة لقادة وزعماء الحركة منشورة في مجلة الصمود الصادرة بالعربية عن الحركة، وغير ذلك من المقابلات التي أُجريت مع قناة الجزيرة وغيرها يظهر أن الحركة ترفض أي حوار مع الحكومة الأفغانية، بعكس ما أرادت بعض وسائل الإعلام العربية والأجنبية تصويره وكأنه حصل حتمًا، وأن ذلك كان برعاية سعودية في البداية أو إماراتية، فالحركة ترفض الوساطات من أجل تشكيل حكومة مختلطة أو مشتركة مع كارزاي، فما دامت ترفض مبدأ الانتخابات بين فصائل مقاومة مثل حكمتيار، فمن باب أولى أن ترفض أي انتخابات في ظل الاحتلال الأجنبي، وهو ما عبَّر عنه لطيف الله منصور في مقابلة نُشرت في مجلة الصمود الصادرة عن الحركة في مايو / أيار ٢٠٠٨م.

أما بخصوص الحوار مع القوات الأجنبية فحتى الآن لم تتحدث الحركة عن الأمر في ظل اكتفاء القوات الأجنبية برغبتها في الحديث إلى المعتدلين من طالبان الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا، كون القتال ووقفه وتصعيده بأيدي زعيم الحركة الملا محمد عمر، ويُتداول في أوساط مقربة من طالبان أن لديها أوراقًا مهمة للضغط في عدة مناطق منها: أوراق القاعدة وطالبان باكستان، ومنظمة جند الله السنية في إيران، بالإضافة إلى مسلحي الأوزبك والتركستانيين الصينيين، ومع الضعف والترهل الذي تعاني منه باكستان إن كان بسبب التباين والاختلاف في مؤسساتها، أو من خلال العمليات العسكرية التي تشنّها ضد طالبان، أو من خلال ضرب وتدمير علاقتها مع طالبان أفغانستان، كل ذلك سيكون موطن

ضعف لباكستان وربما للأمريكيين مستقبلاً، إن قرروا أن تكون باكستان الواسطة بينهم وبين طالبان أفغانستان.

بينما سيشكل ذلك نقاط قوة لطالبان أفغانستان الذين يرون أن انهيارهم وخسارتهم لأفغانستان لم تكن لتحدث لولا التنسيق والتعاون الباكستاني-الأمريكي ضدهم، وهو الأمر الذي قد يعني أن الأمور ستنقلب ضد ما كانت عليه تاريخيًا من تأثير باكستان في الشأن الأفغاني، لتؤثر طالبان أفغانستان في حال وصولها إلى السلطة بالشأن الباكستاني، فهي التي تملك ورقة خطيرة وقوية ممثلة بحركة طالبان باكستان التي تدين لها بالولاء.

واقع طالبان الإعلامي ودروه في التعريف بالحركة:

رغم الحصار المضروب على الحركة، وافتقارها إلى البنية التحتية التي توفر لها إدارة المعركة الإعلامية، فإن طالبان أفغانستان أثبتت قدرة فائقة على إدارة المعركة الإعلامية، تمثل ذلك بتعيين ناطقين باسمها، وهما ذبيح الله مجاهد، وقاري يوسف أحمدي، وإن كان أحد لا يعرف شكلهما، وهما على تواصل ساعة بساعة مع وكالات الأنباء؛ حيث أثبتا في تصريحاتهما صدق نقلهما للوضع العسكري والسياسي، ونفس الأمر ينطبق على الصحف الناطقة باللغة المحلية؛ حيث تصدر أكثر من صحيفة بعضها باللغة العربية، يُضاف إلى ذلك المواقع على الإنترنت.

ويُعزى الاهتمام الإعلامي الطالباني إلى جرأة القائد العسكري الطالباني داد الله في الظهور أمام الكاميرات في أوقات الشدة الحقيقية على طالبان؛ حيث ظهر في أكثر من خمس مقابلات على قناة الجزيرة وحدها، بالإضافة إلى تأسيسه لمركز إعلامي يقوم بمنتجة الصور ونحوها وتقديمها إلى وسائل الإعلام، وكذلك بعمل برامج توزع على الناس في باكستان وأفغانستان لتحريضهم على القتال، ومساعدة مقاتلي طالبان، يضاف إلى ذلك تشجيع الأشرطة والمنشدين الإسلاميين كبديل مؤثر.

لقد قال قدرت الله جمال وزير الإعلام الطالباني السابق في مقابلة مع مجلة الصمود الطالبانية: «إن إعلام الحركة فاعل ونشط، فحين يريد أي صحافي موقفًا أو تأكيد خبر أو نفيه من طالبان يستطيع الحصول عليه في غضون دقائق عبر الاتصال بالناطق الطالباني على تلفون الثريا، في المقابل يتعذر على كثير من الصحفيين الحصول على رد فعل من المسئولين الأفغان بنفس السرعة التي يحصلون عليها من طالبان».

لكن يبدو أن فضل ذلك كله يعود إلى تنظيم القاعدة الذي علّم ودرَّب المركز الإعلامي وعرَّفهم بأهمية الإعلام من خلال مؤسسة السحاب التابعة للقاعدة، بل ويشرف في أحيان كثيرة على عدد من المشاريع الإعلامية الطالبانية.

طالبان باكستان.. عبء أم مساعد للمقاومة الأفغانية:

الحكومة الباكستانية قلوبها مع طالبان أفغانستان وسيوفها عليهم، فهي تدرك أن طالبان أفغانستان رصيد مهم لها في مواجهة الهند، وأنها لا تستطيع مواجهة تبعات عداوة بشتونية على حدودها في أفغانستان، وهو ما يعني استغلالها تاريخيًا من قبل الهند، الأمر الذي يجعلها بين مطرقة هندية وسندان أفغاني، بالإضافة إلى أن الامتدادات البشتونية في باكستان وأفغانستان تجعل إغضاب أو عداوة بشتون أفغانستان تنعكس على بشتون باكستان، وعلى الأمن القومي الباكستاني، وهو ما تجلى بوضوح من خلال الوجود الغربي في أفغانستان، وانعكاس ذلك على بشتون باكستان الذين يدافعون عن أقاربهم في أفغانستان، وتجلى ذلك بظهور حركة طالبان الباكستانية غير الموجودة أصلاً، ثم بانتقال كل أساليب القتال في أفغانستان إلى باكستان من عمليات انتحارية، وعبوات

ناسفة، وغيرها من الأدبيات الفكرية والسياسية التي تدين بها طالبان أفغانستان.

قد يتعذر على إسلام آباد التفريق أمام الغرب بين طالبان أفغانستان وباكستان والتمييز بينهما.. لكن الحقيقة غير المعلنة أنها تفرِّق بينهما، وترغب بنجاح وانتصار طالبان أفغانستان: أولاً لإبقاء القوات الأجنبية مشغولة في أفغانستان، كون السيطرة على الأخيرة يعني التفرغ للجبهة الباكستانية، بالإضافة إلى أن نجاح طالبان أفغانستان سيوفر لها دالة على المستقبل الأفغاني؛ لكون باكستان الأقرب إلى طالبان أفغانستان مقارنة بدول الجوار.. إما من خلال طرح نفسها كوسيط أو من خلال مصالح جيواستراتيجية مستقبلية متشابكة بين الجهتين.

وفي الوقت الذي ترى إسلام آباد أن طالبان باكستان عبء على المقاومة في أفغانستان، ترى طالبان بكافة أطيافها من خلال حوارات داخلية معها أن طالبان باكستان مدفوعون ومرغمون على الرد على الجيش الباكستاني المتحالف مع الأمريكيين، والذي يسعى لضرب القواعد الخلفية للمقاومة في مناطق القبائل الباكستانية بإرادته أو رغمًا عنه، فمثل هذه العمليات ستؤثر سلبًا وبشكل خطير على مسيرة المقاومة في أفغانستان، وبالتالي فإن انشغال الجيش الباكستاني مع مسلحي طالبان باكستان في مناطق القبائل وسوات وغيرها لمصلحة العمل المقاوم في أفغانستان بنظر مسئولي وقادة طالبان أفغانستان، وإن كانوا يحرصون على عدم البوح بذلك، يبرز ذلك من خلال ما يحصل من قطع طرق الإمداد في باكستان، خصوصًا وأن البعض لا يستبعد أن يتكرر سيناريو أحمد شاه أبدالي في القرن الثامن عشر حين طرد الفرس من أفغانستان الحالية، ووسَّع مملكته إلى باكستان والهند ووسط آسيا.

طالبان الباكستانية وطالبان الأفغانية.. جدلية العلاقة:

تحرص القيادة الطالبانية الأفغانية على عدم الحديث عن علاقتها مع طالبان باكستان، لكن الواضح أن العلاقة قوية، وإن كان من الصعب الحديث عن طالبان باكستان كمنظمة واحدة متماسكة، فالأحزاب المسلحة الباكستانية ليس لديها تلك الخبرة التنظيمية والعسكرية والسياسية كحال الأحزاب الأفغانية التي أفرزت بعد عقود حركة طالبان، ولكن لكل زعيم محلي لطالبان باكستان صلات مع قادة طالبان بشكل مباشر، وإن كانت القيادة الروحية للملا محمد عمر هي التي تفرض نفسها وقراراتها على قادة طالبان باكستان المختلفين مع بعضهم، ويرجع سبب الاختلاف بينهم إما إلى تقاربهم في العمر، أو إلى تباينات قبلية ومناطقية، أو بسبب فقر التراكمات التاريخية الحزبية القادرة على فرز الشخصية المناسبة لقيادة الحركة بحيث يُصغي الجميع لها وينصت، يضاف إلى ذلك صعوبة خروج الملا محمد عمر بتعيين شخصية باكستانية على الجميع؛ كون ذلك له تكلفة سياسية وإقليمية.

تحرص القيادة الطالبانية الأفغانية على عدم الحديث عن علاقتها مع طالبان باكستان، لكن الواضح أن العلاقة قوية، وإن كان من الصعب الحديث عن طالبان باكستان كمنظمة واحدة متماسكة.

هل نقل الأمريكيون المعركة إلى باكستان؟

الظاهر أن الأمريكيين يسعون إلى نقل المعركة إلى باكستان، وهو الحلم الذي طالما راود الرئيس الأفغاني حامد كارزاي، الذي يعتقد مع أركان إدارته أنه ما لم تُشغل باكستان بداخلها فستظل تصدر المشاكل إلى أفغانستان بحسب رواية كثير ممن التقوا به.. هذه الرغبة الأمريكية تجلت في دفع الجيش إلى مواجهة المسلحين في وزيرستان وحتى بلوشستان الملتهبة أصلاً بسبب التمرد البلوشي العرقي، فقد دعا رئيس اللجنة العسكرية للناتو الأدميرال جيامباولو في مؤتمر

صحفي بإسلام آباد بتاريخ ٢٠٠٩/٧/٩م إلى بدء عمليات في بلوشستان بالتزامن مع عمليات هلمند، وذلك من أجل محاصرة مقاتلي طالبان الذين يتسللون من وإلى داخل الأراضي الأفغانية بحسب قوله، ثم تبعه قائد القوات المركزية الأمريكية مايكل مولن الذي دعا الجيش الباكستاني إلى شنّ عمليات عسكرية في بلوشستان لمطاردة مقاتلي طالبان الفارين من هلمند، وهو ما رفضته باكستان؛ كون ذلك سيُشعل بلوشستان المختزنة صراعًا عرقيًّا ومطالبات بلوشية بالانفصال والتمرد، فاتَّهم مولن على أثرها المخابرات الباكستانية بعدم الجدية في ملاحقة الطالبان.

إن الباكستانيين يظهر عليهم التخبط في كيفية التعامل مع طالبان، فلا يزال الجدل محتدمًا في دهاليز السلطة السياسية الباكستانية بشأن هل الخلاف الحكومي العسكري مع طالبان أبدي استراتيجي، أم تكتيكي؟ وبالتالي هل الطالبان رصيد أم عبء على باكستان؟

ضبابية الرؤية الباكستانية هذه تجلت على الأرض باستهداف زعيم طالبان باكستان بيت الله محسود الذي تقدر أوساط المحللين قوته بعشرين ألف مسلح تحت قيادته، وعدم الاقتراب من شخصيات طالبانية قيادية مثل غل بهادور في شمال وزيرستان ويقدر عدد مسلحيه ببضعة آلاف، وكذلك ملا نذير في الشطر الشمالي من مقاطعة وزيرستان؛ حيث يقدر عدد مقاتليه أيضًا ببضعة آلاف مسلح.

هذه الرؤية الضبابية تجلت أكثر في عرض الناطق باسم الجيش الباكستاني التوسط بين طالبان أفغانستان والأمريكيين. وبغض النظر عن نفي الناطق لاحقًا لتصريحه إلا أنه عكس - من وجهة نظر معارضي طالبان في باكستان- حجم التخبط الحكومي والعسكري الباكستاني، وتحديدًا إشكالية باكستانية في التمييز بين طالبان أفغانستان وباكستان، بينما هما في الحقيقة شيء واحد تقريبًا.

مجالس الصحوة الباكستانية والرد الطالباني:

لجأت باكستان إلى تشكيل مجالس قبلية مدعومة أمريكيًّا؛ إذ يتردد أن ذلك تم بمعسكرات أمريكية داخل أفغانستان، وذلك على غرار مجالس الصحوة العراقية، ولكن شتان بين التجربتين، فمجالس الصحوة وفكرتها بدأت - بحسب كثير من الخبراء الباكستانيين والمتابعين للشأن الأفغاني - داخل ولاية خوست الأفغانية المتاخمة لباكستان؛ حيث عمدت القوات الأمريكية إلى تدريب المئات من عناصر القبائل الذين تم شراؤهم بالمال، أما التجربة العراقية الصحواتية فقد جاءت ردًّا على تنظيم القاعدة الذي صُور على أنه غريب على النسيج الاجتماعي العراقي، بينما أطراف طالبان باكستان جميعها ظلت متماسكة ومتحدة في معارضتها للصحوات، لاسيما مع انسجامها مع المجتمع القبلي كما أسلفنا من قبل، وبالتالي لجئوا إلى استهداف قادتهم، وتنفيذ عمليات انتحارية ضد تجمعاتهم حتى تراجع دورهم إن لم نقل انتهى.

أسرار استهداف خطوط الإمداد الباكستانية للجيش الأمريكي:

بحسب المسئولين الأمريكيين فإن أكثر من ثمانين بالمائة من الإمداد اللوجستي الغربي لقواتهم في أفغانستان يأتي عبر الأراضي الباكستانية، وهو ما شجَّع طالبان باكستان على استهداف هذا الشريان الحيوي، الأمر الذي دفع القوات الأمريكية إلى توقيع اتفاقيات مع روسيا وآسيا الوسطى لتأمين عبور الدعم اللوجستي الغربي إلى القوات الأجنبية في أفغانستان، وهو ما كلَّفها سياسيًّا وماليًّا أكثر من الكلفة الباكستانية كما أسلفنا.

ويبدو أن القيادة الباكستانية تراخت إزاء مواجهة هذه الهجمات الطالبانية المستهدفة لخطوط الإمداد؛ إذ إنها جزء من عملية الضغط الباكستاني الممارس أحيانًا على قوات التحالف الدولي لانتزاع مكاسب في مواقع أخرى، وغالبًا ما تكون مكاسب مالية لا علاقة لها بالمكاسب السياسية التي تعزز حضور وقوة الدولة كدولة ومجتمع.

انعكاس الأزمة الطالبانية - الحكومية على الكشميريين:

تشكل القضية الكشميرية عصب وبوصلة السياسة الخارجية الباكستانية، وبالتالي فإن ما يقلق الحكومة الباكستانية هو التأثيرات والتداعيات السلبية للعمليات العسكرية على الجماعات الكشميرية المتحالفة مع الحكومة والتي تستخدمها كأداة مهمة في السياسة الخارجية الباكستانية، بحيث تُطالب باكستان من القوى الغربية والهند بشكل دائم ألا يكون ثمة تمييز وفرق في الحرب الباكستانية بين طالبان والمجموعات الكشميرية.

وفي أواخر يونيو/حزيران الماضي كشفت هيئة الإذاعة البريطانية عن تقرير حكومي داخلي في كشمير يتحدث عن تنامي دور ونفوذ الجماعات الكشميرية المحظورة «عسكر طيبة، وجيش ومحمد، وحركة المجاهدين»، لكن الحكومة تسعى إلى التمييز بين المجموعات؛ كي لا يضر ذلك بسياساتها في كشمير وعلاقاتها مع الهند.

إلا أن الإعلام الغربي لا يفرق بينهما ما دامت مصلحته في تجفيف منابع أدوات السياسة الخارجية الباكستانية الممثلة في هذه الأظافر التي كما تخدش بها الهند، فقد تخدش الغرب ذاته في المستقبل، وإن كان الغربيون بالمقابل يتفهمون القلق الباكستاني في هذا الأمر فيؤثرون ما يخصهم في الشأن الأفغاني على ما يخص حلفاءهم الهنود في ملف الجماعات الكشميرية المسلحة.. وإن كان عدد من الأمريكيين يرون أن حركة عسكر طيبة تشكل تهديدًا أيضًا على واشنطن، فشخصية مثل بروس رايدل المسئول في إدارة أوباما عن الشأنين الأفغاني والباكستاني يقول في خليج تايمز ٢٠٠٩/٧/٤ : «... أعتقد أننا ننظر إلى جماعة عسكر طيبة بأنها تهديد للولايات المتحدة أكثر من أي تنظيم مثل القاعدة..».

مستقبل حركة طالبان.. السيناريوهات المحتملة

بداية أود أن أقول: إن قائد القوات المركزية الأمريكية الجنرال ديفيد باتريوس وضباطه الذين أسروا الرئيس العراقي الراحل صدام حسين يصرون على استنساخ النموذج العراقي في محاربة القاعدة، وبالتالي إنشاء صحوات، أو ما يسمى باللشكرات أي جيوش القبائل، وهو كمن يزرع المانجو في سيبيريا، فلكل أرض وتربة هواء وتراب وظروف وأجواء قد تناسب شيئًا ولا تناسب آخر، وبالتالي فإن ما حصل في العراق أو في دول أخرى ليس بالضرورة ينجح في مناطق أخرى، لاسيما وأن الجيش العراقي تم تشكيله بالأساس من مجموعات شيعية عرقية لها أجندة معينة، في حين فشلت القوات الأمريكية بناء جيش أفغاني يستطيع أن يحل محلها في حال انسحابها، فالتقديرات الأمريكية تتحدث عن ضرورة وجود مائتين وخمسين ألف جندي أفغاني قادرين على ملء الفراغ حال رحيل القوات الأجنبية، في حين لا يتعدى عدد الجيش الآن ٩٢ ألف جندي، بالإضافة إلى وجود عقبة أخرى في طريق تشكيل جيش من ربع مليون جندي، وهي التكلفة المالية التي تقدر ببليوني دولار سنويًا، بينما ميزانية أفغانستان الكلية لا تتعدى الآن ستمائة مليون دولار.

وهناك ثلاثة سيناريوهات محتملة لمستقبل حركة طالبان في ظل الاستراتيجية الأمريكية الجديدة تجاه أفغانستان، وتتمثل في الاحتمالات التالية:

١- احتمالية العمل على إحداث انشقاق داخل حركة طالبان: يعول الأمريكيون على مسألة الاتصال بالشخصيات المعتدلة الطالبانية وشق الحركة، لكنهم يجهلون تمامًا طبيعة التنظيمات الأفغانية العصية على الانشقاقات الحقيقية القادرة على ضرب الحزب الأصلي، وهو ما فشل في تمزيق الحزب الإسلامي سابقًا بزعامة قلب الدين حكمتيار، أو ما حصل في خروج بعض عناصر طالبان مع الغزو الأمريكي لأفغانستان، وبالتالي فشخصية زعيم الحركة الملا محمد عمر والعقلية الطالبانية التي بايعته كأمير للمؤمنين، وطبيعة المدرسة الحنفية الديوبندية التي رافقت الحكم الإسلامي منذ العباسيين والعثمانيين وغيرهم، طبيعة موالية للأمير، ولا تعرف الشقاق والخلاف عنه، خصوصًا إن أضفنا إلى ذلك مبايعة القاعدة وطالبان باكستان وكذلك مسلحي الأوزبك وغيرهم للملا عمر، فهي أوراق تدعم موقفه السياسي والعسكري، وعلى هذه الخلفية فالظاهر أن طالبان ستواصل الضغط العسكري حتى إجبار الأمريكيين وحلفائهم على الرحيل من أفغانستان، ربما ضمن صفقة تقضي بضبط مسلحي القاعدة والآخرين عن التعرض لمصالح الغرب.

> **يعول الأمريكيون على مسألة الاتصال بالشخصيات المعتدلة الطالبانية وشق الحركة، لكنهم يجهلون تمامًا طبيعة التنظيمات الأفغانية العصية على الانشقاقات الحقيقية القادرة على ضرب الحزب الأصلي.**

والملاحظ أن مشكلة طالبان الحقيقية في قتال القوات الدولية حتى الآن هي نفس مشكلة المجاهدين الأفغان إبان الغزو السوفييتي، والتي تتمثل في سلاح الجو، فبعد أن تمكنت طالبان -باعتراف عدد من قادة الحرب الغربيين بحسب الجارديان يوم ٢٠٠٩/٧/١١م- من تطوير تقنياتها وتكتيكاتها العسكرية في معركة هلمند؛ حيث تمثل ذلك في إبداعاتهم العسكرية بالعبوات الناسفة القوية التأثير، وعمليات الكر والفر، وسرعة التخفي والظهور، وهو ما شكَّل مفاجأة للقوات المهاجمة.. التي لا تتحرك إلا ببطء وبتثاقل وبمعدات ضخمة مما يفقدها المباغتة بخلاف ظروف طالبان.

٢- احتمالية الانهيار الباكستاني أو تمدد حركة طالبان باكستان: وهو ما سيعني انشغال الغرب والأمريكيين في باكستان، وحصول طالبان أفغانستان على مجال أرحب في العمل والتحرك، لاسيما وهم يدركون أن

باكستان بقدر ما كانت نعمة لهم في دعمها، وغضها الطرف عن أعمالهم ووجودهم على أراضيها بقدر ما كانت نقمة عليهم في ممارسة التدخل في شئونهم والتجسس عليهم، ومقايضتهم مع أمريكا والغرب في صفقات واتفاقيات.. ربما لم ولن تتوقف مع تصريحات نُفيت من قِبل الناطق العسكري الباكستاني عن استعداد باكستان للتوسط بين طالبان والأمريكيين مقابل حصولها على تنازلات أمريكية فيما يتعلق بعلاقاتها مع الهند والقضية الكشميرية، فالكثير من الخبراء يرون المنطقة الآن كحزمة وليس كدول قومية، فطالبان باكستان والأوزبك والتركستانيين وقبلهم القاعدة إنما بايعوا الملا محمد عمر، وهو ما يعني أن الحسبة ستكون إقليمية، والنظرة التحليلية الاستشرافية ينبغي أن ترتكز على ذلك، وليس على أسس الدولة الحديثة الوطنية.

٣- **احتمالية استمرار التدخل الباكستاني لصالح طالبان أفغانستان:** ومن الصعب تخيل أن تتخلى باكستان عن ذلك، فهي تدرك أن ذلك يمثل الثقل الموازي للتنامي الهندي على جبهتها الشرقية، وإذا استمر الانهيار والتراجع الأمريكي والغربي في أفغانستان فلا يُستبعد أن تتدخل الهند بقواتها وتقع مواجهة ضخمة تشترك فيها باكستان والهند وربما إيران لصالح الأخيرة، فقد كانت على الدوام تقف على الطرف المناقض لباكستان فيما يخص الشأن الأفغاني، مع التذكير بأن للهند آلاف الأشخاص وربما عشرات الآلاف يخدمون في أفغانستان تحت غطاء مؤسسات الإعمار والبناء، لكن الحقيقة أن الكثيرين يشككون في أن يكونوا جنودًا -على هيئة مؤسسات إعمار وبناء- مدسوسة من الجيش الهندي؛ بغية محاصرة باكستان من الخاصرة الغربية ما دامت مستنفَدة من الخاصرة الشرقية في كشمير .

معلومات إضافية

المدارس الدينية:

تطلق «المدارس» في باكستان، بل وفي شبه القارة الهندية كلها، على المؤسسات التعليمية الأهلية التي تقوم بتدريس اللغة العربية وعلومها والعلوم الشرعية مجانًا، وبدعم مالي من أهل الخير من أبناء الشعوب المسلمة، وتسمى أيضًا بـ «الجامعة» و«دار العلوم» و«المدرسة العربية الإسلامية».

ويعتبر المسجد الجامع من أهم عمارات المدارس الدينية، بل وفي كثير من الأحيان يكون المسجد هو المبنى الأساسي للمدرسة، وهذا يُعطي المدرسة قداسة خاصة في نفوس الناس.

تاريخ النشأة:

فكرة تأسيس المدارس الدينية ظهرت أيام الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية، بعدما عمد البريطانيون إلى نشر التعليم الغربي من جهة، والعمل على تعزيز دور أبناء غير المسلمين في المجتمع من جهة أخرى، الأمر الذي دفع بعض علماء الدين إلى التوجه نحو تأسيس هذا النوع من المدارس في إطار المحافظة على الهوية الإسلامية بين ملايين الهندوس، والمسيحيين، والبوذيين الذين يستوطنون جنوب آسيا.

وخرجت إلى العيان أول مدرسة دينية في بلدة ديوبند شمال العاصمة الهندية نيودلهي عام ١٨٥٧م، وأُطلق عليها اسم المدرسة الديوبندية، ومن ثم بدأت رحلة زحف هذا النوع من المدارس على جميع أنحاء شبه القارة الهندية، لاسيما في الشمال الشرقي حيث الأغلبية المسلمة، وهي المناطق التي أصبحت تُعرف بعد الانفصال بباكستان.

المدارس الدينية في باكستان:

تُعد باكستان من أكبر الدول الإسلامية من حيث عدد المدارس الدينية، والتي شهدت تناميًا ملحوظًا منذ الإطاحة بحكومة «ذو الفقار علي بوتو» في عام ١٩٧٧م ووصول الجنرال ضياء الحق إلى الحكم، الذي دعم المدارس الدينية؛ باعتبارها إحدى قلاع الحفاظ على الهوية الإسلامية في باكستان.

وانطلاقًا من تلك الرؤية رصد نظام ضياء الحق لهذه المدارس ميزانية خاصة، وقام بتوزيع آلاف المساحات من الأراضي الحكومية - من أجل بناء المدارس الدينية في العاصمة «إسلام أباد» ومدن أخرى - على الجماعات والمذاهب الدينية المختلفة، سواء أكانت للشيعة أم للسنة.

أعداد المدارس:

عشية استقلال باكستان قبل ستة عقود لم يتجاوز إجمالي عدد المدارس الدينية ٣٠٠ مدرسة، إلا أن هذا العدد بدأ يتضاعف عامًا بعد عام إلى أن وصل عام ٢٠٠٦م بحسب مصادر الحكومة الباكستانية إلى أكثر من ١٣ ألف مدرسة منتشرة في أقاليم باكستان الأربعة.

ويدرس في هذه المدارس قرابة ١,٢ مليون طالب وطالبة، معظمهم من الطبقة الفقيرة.

وتعتبر المدارس الدينية ملكًا للشعب الباكستاني وحده، فهو من يصرف عليها، ويتكفل بميزانيتها من خلال تبرعاته لها، ولا علاقة للحكومة لا من قريب ولا من بعيد بهذه المدارس من جهة الصرف والمال. وكان الرئيس برويز مشرف قد وصف هذه المدارس بأنها أكبر مؤسسة خيرية في العالم.

أشهر المدارس:

الاسم الرسمي الذي تحمله المدرسة الدينية في باكستان هو «الجامعة»، ومن أشهر الجامعات الدينية في البلاد الجامعة الفريدية في العاصمة إسلام آباد، والتي تتبع إدارة المسجد الأحمر، والجامعة البنورية في مدينة كراتشي، والجامعة الحقانية في مدينة بيشاور، والجامعة الأشرفية في مدينة لاهور.

المدارس ولعبة السياسة:

شكَّل غزو الاتحاد السوفييتي السابق لأفغانستان في بداية السبعينيات عاملاً مهمًا في قيام الحكومات الباكستانية المتعاقبة في تلك الفترة -لاسيما في عهد الجنرال ضياء الحق- بدعم المدارس الدينية التي تحولت إلى جدار عقدي يحارب المد الشيوعي إلى البلاد.

ومع مطلع الثمانينيات وعشية انفجار الجهاد الأفغاني رفض المشرفون على المدارس الدينية إقحام طلابها في القتال، وطالبوهم بالاكتفاء بالعلم والتفقه، وحفظ القرآن. وكان من بينهم «مولانا فضل الرحمن» و«مولانا سميع الحق» و«مولانا نظام الدين شامزي» وغيرهم من الرافضين لإرسال طلاب مدارسهم إلى الجهاد.

وفي عام ١٩٧٩م قاد أحد الطلبة – واسمه «إرشاد أحمد» – الحملة داخل المدارس لحمل الطلاب على مساعدة إخوانهم في الجهاد الأفغاني.

ثم قام «إرشاد أحمد» بجولة على المنظمات الجهادية الأفغانية لمعرفة حاجاتها العسكرية، وأنشأ «إرشاد» أول خلية جهادية داخل جامعة «دار العلوم» (كراتشي ثم جامعة بنوري تاون في كراتشي)، لتجنيد الطلاب وإرسالهم إلى الجهاد، ومساعدة المجاهدين أيام عطلتهم خلال شهري شعبان ورمضان من كل عام.

ثم توسع التيار الجهادي الباكستاني داخل المدارس الدينية، وقاده كل من «إرشاد أحمد» و«سيف الله أختر»، وأدى تمرد الطلاب على شيوخهم، وعدم الاستماع لهم إلى تغيير العلماء لآرائهم ومواقفهم، لتدريس التربية العسكرية لطلاب مدارسهم.

وفي عام ١٩٨٥م استشهد «إرشاد أحمد» أثناء مشاركته في الجهاد الأفغاني. وكان قبل مقتله قد أنشأ «حركة الجهاد الإسلامي»، وهي أول منظمة باكستانية دينية تحمل السلاح في تاريخ باكستان بعد نحو ٢٠٠ سنة من «حركة إسماعيل الشهيد».

واستمر تجنيد طلاب المدارس الدينية بموافقة السلطات الباكستانية، التي سعت لإخراج الاحتلال السوفييتي من أفغانستان. ومن حينها أصبحت المدارس الدينية التابعة لـ«جمعية علماء الإسلام» أو «المدرسة الديوبندية» ترسل طلابها إلى معسكرات التدريب لتلقي التربية العسكرية، ثم المشاركة في القتال داخل أفغانستان.

ولعبت هذه المدارس أيضًا دورًا في استقبال الطلاب الأفغان الراغبين في التزود من العلوم الشرعية في باكستان، على يد كبار علماء التفسير والحديث والفقه في باكستان.

وكان للمدارس الحقانية التي أسَّسها (مولانا سميع الحق) دور كبير في جلب أغلبية الطلاب الأفغان، من بينهم حتى قيادات كبيرة أمثال «مولانا جلال الدين حقاني» و«الملا محمد عمر» و«الملا أحمد متوكل».. وغيرهم.

المدارس الدينية تحت الرقابة:

رغم أن السلطات الباكستانية لم تكن غير بعيدة عن تأسيس المدارس الدينية، إلا أنها في ٢٠٠٢/١/٢٠م رأت ضرورة إعادة النظر في موقفها من هذه المدارس، فأعلنت وضع جميع المدارس الدينية تحت الرقابة، وخاصة الجامعات الدينية الشهيرة التي خرّجت كبار العلماء والزعماء الدينيين والجهاديين.

وركزت السلطات الباكستانية على مدينة كراتشي التي تضم أكثر الجامعات والمدارس الدينية شهرة في باكستان (٥٠٪ من مجموع المدارس في كراتشي وحدها).

وطلبت السلطات الباكستانية من ١٠٠٠ مدرسة وجامعة دينية في كراتشي تسليمها قوائم الطلاب المنتسبين إليها، وكذا معلومات عن أُسَر الطلاب، وعن منهج التعليم المتَّبع في هذه المدارس، كما طلبت تسليمها قوائم جميع الطلاب المنتسبين إليها خلال الـ٢٠ سنة الأخيرة.

وركزت السلطات الباكستانية على شريحة الطلاب الذين انضموا إلى الجهاد الأفغاني أيام الاحتلال السوفييتي، أو إلى الجهاد الكشميري. ومن المعروف أن هذه السلطات نفسها هي التي نظَّمت عملية التحاق طلاب هذه المدارس بالقتال.

وطلبت السلطات أيضًا إعطاءها معلومات حول تمويل الجامعات، ومصادر جميع الأموال، وخاصة المصادر الخارجية، وذلك وفقًا لمطالب المخابرات الأمريكية - بحسب المراقبين المحليين- التي تبحث عن أسماء معينة داخل المدارس الدينية وخاصة بعض المطلوبين الأجانب.

ثم أصدرت الحكومة قانونًا جديدًا يُوجِب على المدارس الدينية التسجيل لدى الحكومة. ثم تم الضغط على هذه المدارس لتغيير مناهجها، إلى أن وصل الأمر إلى طرد جميع الطلبة الأجانب الذين كانوا يدرسون فيها.

المصادر:

- د. مصباح الله عبد الباقي، قصة المدارس الدينية في باكستان، إسلام أون لاين.نت، ٢٠٠٧/٧/٩م، انظر الرابط:

http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-ArtCulture%2FACALayout&cid=1183484071456

- المدارس الدينية في باكستان .. من النشأة إلى محاولات التصفية، مجلة المجتمع، العدد ١٧٩٤، انظر الرابط:

http://www.almujtamaa-mag.com/Detail.asp?InNewsItemID=264577

- مدارس باكستان الدينية.. ماضٍ زاهر ومستقبل مجهول، الجزيرة. نت، ٢٠٠٧/٧/١١م، انظر الرابط:

http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1063052